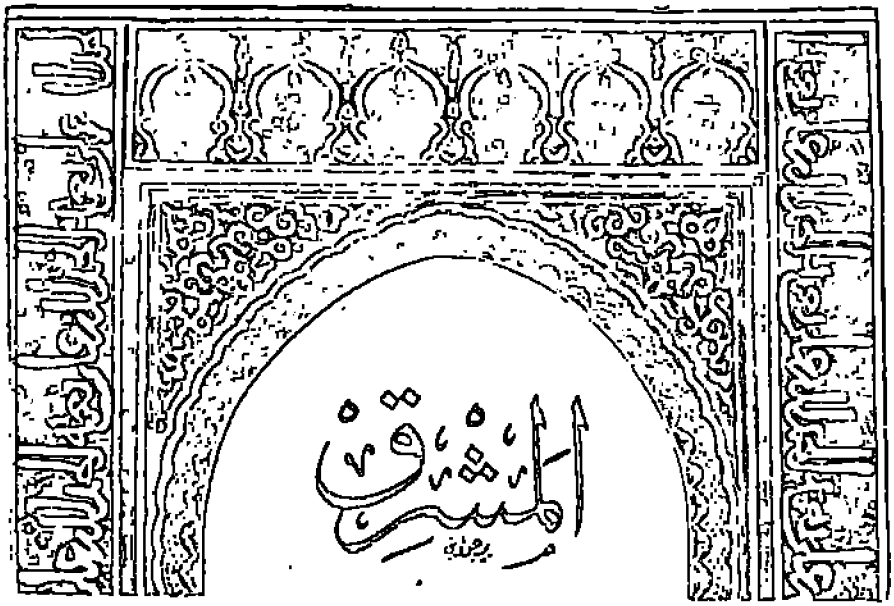

ايار ١٩٢٩

قداسة الحبر الاعظم

البابا بيوس الحادي عشر

يرثيه الذهبي الكرمليتي

بقلم المنوري جرجس غالب

٥

ارتقاؤه الى السدة البطرسية

في اليوم الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٢ ، انتقل الى مقر الابرار السعيد الذكر البابا بنديكتوس الخامس عشر ، بعد ان قضى في الحبرية سبع سنوات بنيف كانت سنوات استشهاد له ، لكنها ملأى بالاعمال العظيمة التي استدعت اعجاب العالم وامتنانه لما بذله فقيد الكثلكة من المساعي والجهود في تخفيف ويلات البشرية مدة الحرب العالمية المريعة . وقد اعترف الجميع بفضله واقاموا الآثار تخليدًا لذكره حتى في عاصمة تركية نفسها .

وفي اليوم الخامس عشر لوفاته ، وهو اليوم السادس من شهر شباط ، وقع انتخاب الكرادلة المجتمعين في رومية على السيد اشيل راتي ، مطران مديولان ، فاطلّ الكردينال بيسلاتي عميد الكرادلة الشمامسة ، وبشّر الجمع المتألب في ساحة القديس بطرس ان قد اختار امراء الكنيسة السيد اشيل راتي المذكور ، وانه قد اتخذ اسم بيوس الحادي عشر . فعلا الهتاف ، وشمل الفرح الكنيسة المترملة ، وصاحت الجماهير : فليحيَ البابا الملك .

وبعد هنيهة ظهر البابا على شرفة كنيسة القديس بطرس الخارجية فبارك ذلك الحشد ثلاثاً . وكانت تلك المرة الاولى بعد سنة ١٨٧٠ ، يطلّ فيها الحبر الاعظم على ساحة القديس بطرس . فتناولت الصحف هذا الخبر ، وعلّقت عليه الفصول الضافية . لكن بلاغاً صدر من البلاط البابوي اوضح القصد من هذا العمل ، وهو ان البابا انما اراد ذلك ليبين انه لا يريد ان تنحصر بركته الاولى في الشعب الحاضر امامه ، ولا في رومية وايطالية ، بل ينبغي ان تمتد الى العالم باسره حاملة بشرى ورجاء المصالحة بين الشعوب ، تلك المصالحة التي هي الضالة المنشودة . ولا يقصد سوى ذلك ، لان الحبر الاعظم يحرص تمام الحرص على اليمين التي اقسمها بالمحافظة التامة على حقوق الكنيسة والكرسي الرسولي .

وبعد ان قدّم الكرادلة الخضوع للبابا ، مرّ امامهم وخاطب كلاً منهم بلغة وطنه . ثم في مساء ذلك اليوم اقرّ الكردينال غسباري في وظيفته ، اي وزارة الدولة البابوية . وتمت حفلة التتويج بابهى مظاهرها يوم الاحد ١٢ شباط بحضور هيئة السفراء والاشراف ، وعائلة الحبر الاعظم ، وعدد غفير من الكرادلة والاساقفة والمؤمنين . وبعد الانتهاء منها اطلّ البابا ايضاً على شرفة الكنيسة الخارجية مرتدياً ثيابه الحبرية وبارك الشعب الحاضر ثلاثاً ، ثم تقبل تهانئ الكرادلة .

وفي ١٨ منه قدم سفراء الدول اوراق اعتمادهم واعرب عميدهم ، سفير اسبانية ، عن تهانئ الحكومات التي يمثلونها ودعا للبابا الجديد بالعمر المديد ليواصل عمل المصالحة الذي كان قد باشره سلفه المطوّب الذكر بنديكتوس الخامس عشر . فاجابه بيوس الحادي عشر شاكراً ، واعلن انه لن يحيد عن خطة

سلفه ، وهو يغتبط ان تلتف حوله هيئة سفراء ممتازة لا يجهل ما يكون لها من التأثير في عالم السياسة.

ما فرغ صاحب القداسة من المقابلات الرسمية حتى انصرف الى الوقوف على احوال الكرسي الرسولي والكنيسة. فتعرّف الى كلّ من موظفي الدوائر الرومانية ، واستوضحهم مجرى الامور. ثم اثبت ما كان قد سبق فاتخذه سلفه من القرارات والتدابير ، واهمها المؤتمر القرباني الاممي السادس والعشرون المنوي التئامه في رومية ، والاحتفال بمرور ثلاثة قرون على تأسيس مجمع نشر الايمان ، ثم نقل ادارة عمل نشر الايمان الى رومية لاسباب وجيهة . وقد تمت كل هذه الحفلات بكل ابهة ، واخصها المؤتمر القرباني الذي افتتحه البابا بنفسه (٢٤—٢٩ ايار) وختمه بقداس حبري اقامه يوم عيد الصعود ، بعد ان كان ترأس قبلاً السجود الليلي ، ووزع المناولة على المؤمنين مدة ساعة وربع ساعة. اما التطواف الذي جرى فحدث عنه ولا حرج . ويمكن القول ان رومية باجمعها اشتركت فيه ، وقد تولى تأمين النظام وحسن السير جنود الحامية وعددهم عشرة الاف.

اما التذكار المئوي الثالث لتأسيس مجمع نشر الايمان فسبق الاحتفالَ به مؤتمرٌ للارساليات ، وختم بقداس حبري اقامه البابا نفسه وخطب فيه عن واجب الكرازة والتعليم. ثم عُقد اجتماع تليت فيه الخطب بسبع وعشرين لغة ، امام الحبر الاعظم الذي قال كلمة الختام معلناً ان نفسه لن تذوق الراحة ما دام يعلم انه يوجد نفوس تتسكع في دياجير الضلال ، فهو يرغب في تنشيط الدعوات للارساليات ، ولا يأنف من ان يمد يده مستنداً سخاء المؤمنين الحقيقيين ، الذين يعلمون ان اشتراكهم في مساعدة المرسلين هو عمل عظيم له عند الله اجر جزيل

وكانت احوال اوربة المضطربة تشغل بال البابا ، وكان يخشى ان تطير شرارة فتشعل نار فتن جديدة يرهب النفوسَ لها ما ابقته الحرب العالمية في القلوب من الضغائن واورثته من الخراب المادي والادبي ، فأخذ برسائله المفعمة حكمةً وحناناً يناشد الشعوب وولاة امورها ان يقلعوا عن سياسة العنف ويلجأوا الى طرق مصالحة القلوب وجلاء النفوس من الدخائل الوبيلة ، لان اساس السلم ودعامته هو التسامح والمحبة ، ولا سبيل للوصول الى تلك

الغاية الّا باعادة السكينة الى القلوب وتعزيز مبدأ السلطة ، وهذا ما لا يستطيعه غير الكنيسة التي ترسخ في الافراد والجماعات فكرة المغفرة بتأييدها ملك المسيح على اليال والشعوب. فالمسيح ملك السلام ، ولا خلاص لجماعة تنكر الله وتنبذ مبادئ المسيح وملكه . ولذا ما انفك ينشط كل عمل يُقصد منه تمليك المسيح في الهيئة الاجتماعية ، وتخليصها من التعاليم اللادينية مصدر الفوضى العقلية والاباحية ، وتطاحن طبقات الشعوب في سبيل الربح المادي وملذات الحواس . وقد اوضح صاحب القداسة هذه الامور في رسالته الاولى العامة « *Ubi Arcano* » (٢٣ ك ١ ١٩٢٢) وفي سنة ١٩٢٥ رسم ان يحتفل كل سنة بعيد المسيح الملك تذكيراً بان الملك الواجب ان يتسلط على الجميع هو المسيح الفادي. ثم ما لبث ان اعاد الى اذهان المسيحيين ان لهم قدوة يحسن التمثل بها في حياتهم الدنيا ليتمتعوا بسعادة الآخرة ، فذكرهم ، في منشوراته قيمة ، ما تحلى به القديسون العظام من الفضائل الراسخة . فانهم جمعوا بين العلم والفضيلة السامية لانهم ملكوا المسيح في عقولهم وقلوبهم وخضعوا لشرائعه خضوعاً تاماً . وما حادوا قط عن الخطة التي رسمها الانجيل الطاهر فحق ان يُجعلوا منارة يهتدي بنورها جميع الذين يهمهم خلاص نفوسهم وخدمة الكنيسة . ومتى طالعت رسائله في القديسين فرنسيس سالس ، واغناطيوس دي لويولا ، وفرنسيس كسافاريوس ، وترازية العظيمة ، وفيليبوس نري ، ولويس غونزاغا ، وتوما الاكويني ، ويوشافاط شفيع الصقالبة ، وفرنسيس الاسيزي ، تجلى لك فيها سموّ افكار الحبر الاعظم وطموحه الى ان يحمل ابناءه على السعي وراء السعادة الحقيقية مبيناً لهم ان الحياة الدنيا ليست سوى سلّم ترتقيه لنبلغ الى السماء.

ولم تنحصر مطامح بيوس الحادي عشر في ارشاد ابناء الكنيسة الكاثوليكية ، بل انه شمل النفوس كلها بحنانه وغيرته . فسواء احتفل بتذكار تأسيس مجمع نيقية الايمان او مدرسته ، او بتدشين متحف الارساليات الذي امر بانشائه ، او استقبل المرسلين ، او تمم بالاحتفالات المقامة احياء لفضل منشئي جمعيات الرسالات كالكردينال لافيجري ، ما كان يدع فرصة تفوته ، بل كان يستفيد من الاحوال كلها فيطري المرسلين واعمالهم ويشجعهم ويستحث المؤمنين

ليشروا الدعاية ، حتى ينشط الشبان الاتقياء للانخراط في سلك تلك الجمعيات المتخصصة للارساليات ، ويجودوا بمالهم مساعدة لعمل التبشير العظيم. وقد نشر في هذا الموضوع رسالة شائقة في الارساليات اثنى فيها على الصفة المشتغلين بالحصاد ومشاريعهم ، ونفحهم بالنصائح الابوية ، واشار عليهم بان يهتموا باعداد اكليروس وطني في كل بلاد يفتحونها للمسيح الملك حتى يُعرف ان التبشير ليس دعاية وطنية بل خلاصية روحية. واوصى الجميع بان لا يحتقروا الوطنيين او يعدّوهم احط منهم منزلة وعقلاً واهلية للتهذيب ، لان الاختبار اثبت عكس ما يزعمون. ثم أيد الحبر الاعظم خطته بسيامته بذاته ستة اساقفة صينيين واسقفاً يابانياً.

ولم يكن اهتمام بيوس الحادي عشر بتهذيب الاكليريكيين والرهبان اقلّ منه بتنشيط عمل التبشير ، لان نجاح الدعاية الانجيلية يتوقف على ما يتحلى به الكاهن العالمي والقانوني من الفضائل الراسخة والعلم الثابت. فاذاع في الموضوع رسالتين هامتين احداهما للرهبان ، والثانية لعموم اساقفة العالم ، في تهذيب الاكليريكيين ، وتثقيفهم ، وتنظيم المدارس الاكليريكية بمقتضى الحاجات العصرية . ثم الحّ في وجوب تضلعهم من الدروس الكتابية.

ومما لفت انظار الحبر الاعظم مساعي رؤساء المذاهب المسيحية المنفصلة عن الكنيسة لضمّ شملها ، وتوحيد كلمتها . فخاف ان يُخدَع اصحاب النيات السليمة بهذه التظاهرات الخلّابة ، ويميلوا الى تحقيق فكرة توحيد الكلمة بتضحية الحقائق التي استودعها السيد المسيح كنيسته ، فاسرع الى نشر رسالته المشهورة في «وحدة الكنيسة الحقيقية» كشف بها القناع عمّا يرمي اليه اصحاب هذه الدعاية ، وحذّر المؤمنين من الانخداع بها ، اذ لا يمكن ان تكون وحدة ايمان حقيقية في غير كنيسة المسيح التي سُلّمت السلطة فيها لخليفة القديس بطرس هامة الرسل. فان وديعة الايمان لا يمكن التساهل بانقاصها ارضاء للخواطر وتسهيلاً لتفاهم واهن معرّض لتقلبات الاهواء واختلاف الاغراض. (٦ ك ٢ ١٩٢٨)

واخيراً استحلف العالم الكاثوليكي في رسالته « *Miserentissimus* » (٨ ايار ١٩٢٨) ان يقوم بواجب التعويض لقلب يسوع الاقدس ، لانه ما من مسيحي يمكنه ان يعتبر نفسه مسيحياً حقيقياً ان لم يشترك مع المسيح في التعويض

عن الخطايا ، ولا يمكنه ان يتمتع بمجد المسيح ان كان بأبى ان يشاطره التكفير عن المآثم . وهذا ما يريده قلب يسوع الاقدس وقد اوضحه للقديسة مارغريتا الاكوك . ثم فرض صاحب القداسة على المؤمنين ان يتلوا فعل التعويض الذي وضعه هو في عيد قلب يسوع في كل سنة .

ولا يسعنا اغفال ذكر السنة المقدسة ١٩٢٥ التي فتح البابا فيها كنوز الرحمة والغفران لزائري رومية ، ثم اذاعها في العالم كله لسنة ١٩٢٦ . وقد تجلت فيها تقوى المؤمنين باقبالهم على غنم هذه النعم والاستفادة بخيرات الكنيسة الروحية . وفي اثنائها جرت احتفالات عظيمة منها اعلان قداسة ترازية الطفل يسوع ، وبطرس كانيزيوس ، والراهبتين ماري مادلين بوستل ، وصوفيا بارا ، والكاهنين يوحنا المعمدان ڤياناي ، ويوحنا أرد . اما المطوبون فعديدون منهم شهداء كندة اليسوعيون ، وبرنادت سوبيرو التي ظهرت لها سيدتنا مريم العذراء في لورد . وجرت تطويبات غيرها في مدار حبرية بيوس الحادي عشر اكتفينا بالاشارة اليها .

٦

بيوس الحادي عشر والشرقيون

لما كان السيد راتي سفيراً بابوياً في پولونية ، درس عن كثب حالة روسية بعد الثورة التي قلبت نظام الحكم فيها وعمت الخراب في ارجائها ، فاشفق قلبه عليها واخذ يفكر في الطرق التي تمكنه من مد يد المساعدة الى ذلك الشعب التعس الذي عضه الجوع بانيابه ، وكادت الاضطهادات المتواصلة تقضي عليه .

وما تبوأ السدة الرسولية حتى اخذ يسعى لتخفيف ويلات روسية ، طامحاً الى استجلابها الى الكنيسة الرومانية عمود الحق ومنارة ، فحاول في مؤتمر جنيف ان ينال شيئاً من مفوضي السوڤيات . ثم استأنف مداولة مندوبيهم في رومية . واخيراً أذنَ لبعثة حبرية ان تذهب الى روسية لتوزيع الاعانات على تلك الجماعات التي كان يفتك بها الجوع فتكاً ذريعاً ، واذاع في العالم رسالة استدرى بها اكفّ المحسنين ، فاجابوه الى ندائه اذ قد اكتتب هو نفسه بمليوني فرنك ايطالي ، فوردت عليه التبرعات حتى بلغت العشرين مليوناً أعطيت كلها للروس بواسطة البعثة ، وبقيت هذه مثابرة على عملها الى ان منعها السوڤيات .

وكذلك توسط لخلاص البطريرك الروسي تيخون ، وطلب من السوفيات ان يبيعوه الاواني الكنسية التي كانوا ضبطوها ليبقيها للكنيسة الروسية ، وبذل كل ما يوسعه لينجي الاساقفة الكاثوليكيين والاكليروس من مخالب اولئك المضطهدين ، فوفق الله اكثر مساعيه ، وهو لا يزال من وقت الى آخر يرسل من يفتقد ابناءه المتبددين . وقد كلف مرة السيد دربيني رئيس المعهد الشرقي القيام بهذه البعثة فخاطر بنفسه واتم مهمته الشاقة بكل نجاح . كما انه انتدبه الى حضور مؤتمر فلهراد المنعقد البحث في وسائل استجلاب الاخوة المنفصلين الى وحدة الايمان ، واوعز اليه ان يطوف الشرق ليقف على احوال الكنائس فيه . ومن دلائل عنايته انشاؤه لجنة خاصة لشؤون الروس ، وتأسيسه مدرسة اكليريكية تعتني بتهذيب المرشحين للكهنوت . وقد اهتم قداسته اهتماماً خاصاً بالمعهد الشرقي ، وبالمدارس الاكليريكية الحبرية المقامة لتربية الاكليريكيين الشرقيين ، وحض اساقفة العالم على ترويج الدروس الشرقية ، وطلب منهم ان يرسلوا الى رومية طلبة يتضلعون من هذه الدروس حتى يقفوا على حقيقة تاريخ الكنائس الشرقية ويتشربوا الطرق التي تؤدي الى الغاية المقصودة . . ولم يدع سانحة الا اغتنمها لينشط كل ما يسهل للشرقيين اطلاعهم على الحقائق ، واطرأ المعاهد التي تهتم بهذه الدروس وخص بالذكر منها كلية القديس يوسف في بيروت التي يديرها المرسلون اليسوعيون .

وارسل كتابات تهنئة لصاحبي النيطة البطريرك الماروني ، وبطريرك السريان الكاثوليكيين بمناسبة يوبيلهما الفضي البطريركي . فاثنى على اعمال الاول ولاسيما مناهضته الشيعة الماسونية ، وتأسيسه راهبات العائلة المقدسة المارونيات ، وسعيه في تجديد المدرسة المارونية الرومانية ، وفضائله الممتازة ، وخص الثاني بتقدير عمله واجتهاده ، وسهره على شؤون طائفته الروحية .

ولما ذهب الى رومية صاحب النيطة بطريرك الروم الكاثوليك امر صاحب القداسة بان يجري له استقبال فخم دلالة على ما لهذه الطائفة من المحبة في قلبه . ولم ينفك عن تنشيط الاكليريكيين الشرقيين في رومية ، ليبذلوا جهدهم في تشرب روح الفضيلة والعلم والتعلق بالكرسي الرسولي . وقد اقام مدارس

اكليريكية للطوائف التي خلت منها كالاقباط والروس.

اما الارمن فقد ابدى نحوهم من العطف ما لا يحيق به وصف ، فانه مدّهم بالمساعدات المادّية ، وآوى يتيماتهم في قصره كاستل غاندولفو ، وجمع بطريركهم واساقفتهم في روميـة لعقد مجمع طائفي (١٩٢٨) تحت اشرافه ، يعيدون فيه النظر في تنظيم شؤونهم الروحية. فنقل كرسيهم البطريركي الى لبنان ، وجُعلت القسطنطينية مركزاً لرئيس اساقفة. ولم يبخل عليهم صاحب القداسة بما يساعدهم في ضيقاتهم . فحق عليهم ، كما على سائر الشرقيين ، ان يسجلوا هذه الحسنات بماء التبر في تواريخهم.

اما الموارنة فلن ينسوا ابد الدهر عطف صاحب القداسة الذي رفـع على المذابح ثلاثة من ابنـاء طائفتهم ، وهم الاخوة المسابكيون الذين سفكت دماؤهم في دمشق بغضاً بالـدين سنة ١٨٦٠ ، فقد طوّبهم الحبر الاعظم في العـاشر من تشرين الاول سنة ١٩٢٦ ، مع ثمانية رهبان من ابناء القديس فرنسيس.

وتذكر الطائفة المارونية بالشكر تنازل الاب الاقدس وامره باجراء التحقيق البدائي عن عبيد الله ، الابرين نعمة الله الحرديني وشربل بقاعكفرا ، والراهبة رفقا الريس ، وعطفه على هـذه الدعوى ووعده بالتعجيل فيها ايده الله وزاد مجده وفخره.

ولن ننسى اشفاقه على منكوبي الثورة في لبنان ، واهتمامه بهم ، خصوصاً اهل راشيا ، لدى الحكومة الفرنسية. ومساعيه في سبيل تأمين حقوق المسيحيين في فلسطين ، ومطالبته بحفظها وحفظ حقوق الجميع من كل تعـد ، مما دعا الصهيونيين الى التخفيف من حدتهم ، والبريطانيين الى التؤدة والتأني.

٧

البابا والدول

ان علاقات الكرسي الرسولي مع الدول قد بلغت من الولاء مبلغاً عظيماً ، فاعترف مسيو جونار سفير فرنسة الاسبق لدى الڤاتيكان بان البـابا هو اعظم قوة ادبية في العـالم . ووردت على قداسته منذ تبوّئه السدة البطرسية دلائل

الاحترام من كل صقع ، وتسابق الى زيارته ملوك بلجيكة ، وانكلترة ، واسوج واسبانية ، وولي عهد رومانية ، ورؤساء الحكومات الاخرى . وعقدت في عهده معاهدات مع لتونية ، وليتوانية ، وبافارية ، وبولونية ، والبرتوغال ، واتفاق مع تشيكوسلوفاكية . ورخص بتأليف مجالس ابرشية في فرنسة بعد الاتفاق مع حكومتها على تأمين سير هذه المجالس بموجب القوانين الكنسية ، وحرم اعمال وتعاليم «الاكسيون فرانسيز» وجريدتها الوبيلة .

الا ان حالة المكسيك كانت تشغل باله ، فسعى جد السعي لتخفيف وطأة الاضطهاد عن الكاثوليكيين . فلم يقتنع مستلمو زمام الامور ولم يرعووا ، فاذاع رسالة عامة ابان فيها حالة المكسيك وجلا اسباب الاضطهاد ، ودعا الجميع الى التوسل اليه تعالى لقصر ايام الشقاء والاضطراب .

اما الحادث التاريخي الهام الذي سيكون منه التأثير العظيم في الحالة الدولية ، وحالة الكنيسة الكاثوليكية ، ومملكة ايطالية خصوصاً ، فهو الاتفاق الخطير الذي وقعه ، في ١١ شباط الماضي ، في قصر مار يوحنا لاتران ، الكردينال غسباري وزير الدولة البابوية ، والسنيور موسوليني رئيس حكومة ايطالية . وفيه تعترف ايطالية بسيادة الحبر الاعظم السامية على «حاضرة الفاتيكان» وتقرّ باستقلاله المطلق الحقيقي ، وتلغي شريعة الضمانات ، وتتصرف ازاء الحبر الاعظم تصرفها مع الدول المستقلة الحاكمة ذاتها بذاتها . واضيف الى ذلك اتفاق يقرّ حالة الكنيسة في ايطالية على اسس راهنة ، ويثبت حقوقها الجوهرية في تدبير شؤونها وشؤون الكاثوليكيين من حيث الروحيات ، ويعترف للكنيسة بحقها الاسمى على عقد الزواج ، ويسهل لها تلقين الشبيبة المبادئ المسيحية ، الى غير ذلك مما لا يسعنا تعداده في هذه العجالة ، وقد افرد «المشرق» مقالة خاصة بهذا الموضوع . ولا ريب ان هذا الاتفاق هو اعظم الحوادث التاريخية في هذا العصر ، وزينة يوبيل صاحب القداسة الكهنوتي الذهبي . متعنا الله باطالة حياته السعيدة ! وكلل مساعيه باكلة النجاح لمجده تعالى ، وفخر الكنيسة ، وخير النفوس ، وتعزيز الكثلكة !